سياسة الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٥٩-١٢٧٧م) تجاه أميرا الحجاز

د. صفوان طه حسن
كلية التربية- جامعة الموصل

تاريخ تسليم البحث : ٢٠٠٨/١٢/١ ؛ تاريخ قبول النشر : ٢٠٠٩/٢/١٨

ملخص البحث :

تمتعت الحجاز (مكة والمدينة) ، بشبه استقلال ذاتي منذ انتهاء حكم الأيوبيين على مصر (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) وعلى بلاد الشام سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) حتى عهد الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٥٩-١٢٧٧م) ونتيجة لانشغال الملك الظاهر عنها تمكن ملك اليمن من السيطرة عليها مدة من الزمن فكان ذلك سببا من أسباب الخلاف السياسي بين المماليك وملك اليمن .

اعتمد بيبرس مع أمراء الحجاز سياسة اللين والمداراة حينا والضغط السياسي والتهديد بالعمل العسكري حينا آخر ، كما انصب اهتمامه على الكعبة الشريفة والمسجد النبوي والهدف من ذلك تحقيق ما يأتي :

أولا. أداء واجبه أمام الله سبحانه والرعية ، بموجب التقليد الخليفي له بالاعتناء بالعتبات المقدسة وخاصة منها الحرمان الشريفان .

ثانيا. كان الاعتناء بتلك المدن مكسبا سياسيا اخذ كل السلاطين المسلمين التسابق للقيام به .

Al- Malik al-Zahir Baybar,s Policy Towards The Amirs of Hijaz (658-676A.H/1259-1277A.D)

Dr. Safwan Taha Hasan
College of Education- University of Mosul

Abstract:

The Hijaz district (Mecca and Madina) enjoyed a semindependent Status since the end of Ayyubid rule in Egypt and Bilad al- Sham in (648 A.H /1250A.D) ,and till the era of the Mamlukid Sultan al – Zahir Baybars (658-676A.H/1259-1277A.D).Sultan Baybars engaged in wars

with the Crusaders and Mongols during the first Years of his era . This enabled the King of Yemen to extend his domination on the district of Hijaz .

Sultan Baybars followed a policy of compromise towards the Amirs of Hijaz on one hand , and of political Pressure and threats of military action, on the other hand .He also focused his interest on the Sacred Kaaba in Mecca and the Prophet Mosque in Madina . He did so for two reasons , the first one was fulfilling his religious duty in accordance with the authorization given to him by the Abbasid Caliph in Cairo to take care of the sacred places in the Hijaz , especially the Kaaba and the Prophet Mosque . The second reason was to achieve political gains by so doing .

توطئة:

أحدث سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) إشكالا حول مرجعية حكم وتبعية الحجاز –حماية الحرمين الشريفين– لأنها (أي الخلافة العباسية) السند الشرعي لأميري الحجاز ، عند ذلك سارع أميرا مكة إلى تقديم البيعة إلى الحفصيين في تونس ، إذ أعلن أميرها، أبو عبد الله الحفصي ،[١] الخلافة الحفصية فيها سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) ولقب المستنصر بالله ،[٢]إلا أن إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة(٦٥٩هـ/١٢٦١م) ،[٣]قطع الطريق على الحفصيين ، وجعل ولاء أمراء الحجاز للخليفة العباسي في القاهرة .

إن حالة عدم الاستقرار السياسي في المشرق الإسلامي التي سببتها الهجمة المغولية على البلاد الإسلامية وخوف العديد من ملوك وأمراء المسلمين من دخول القوات المغولية إلى بلادهم ، حجم دورهم السياسي في الحجاز ، ولما كانت مكة والمدينة تتمتعان بشبه استقلال ذاتي ، كان تأثير سلاطين مصر وملوك اليمن عليها واضحا ، إذ خضعت الحجاز للأيوبيين في مصر طوال حكمهم لليمن منذ سنة (٥٦٩-٦٣٠هـ/ ١١٧٣-١٢٣٢م) ،[٤]وعندما استقلت اليمن عن الأيوبيين سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، وأعلن الملك المنصور عمر بن رسول (٦٣٠-٦٤٨هـ/١٢٣٢-١٢٥٠م)،السلطنة فيها وابتدأ بذلك عهد الدولة الرسولية في اليمن[٥]، وبسبب الموقع الجغرافي وقرب اليمن من الحجاز عزز بسط نفوذ ملوك اليمن عليها .[٦]

لذلك عانت الحجاز من أطماع الملوك والسلاطين ، وغالبا ما كان الهدف منه الدعاية لهم في أثناء مواسم الحج ، فهو خير وسيلة لعرض مكارم السلاطين والتفاخر بها أمام الحجاج

الذين قدموا من بلدان الإسلام المختلفة ، وقد ينقل الحجاج أخبار تلك الأعمال إلى بلادهم ، وهو الغرض المنشود من تلك الدعاية .

التنافس المملوكي اليمني للسيطرة على الحجاز :

أراد ملك اليمن الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول (٦٤٨-٦٩٤هـ/ ١٢٥٠-١٢٩٣م) ، السيطرة على مكة ، فجهز حملة إلى الحجاز بقيادة مبارز الدين علي بن حسين بن برطاس ، ومعه ثلاث مئة فارس في شعبان سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) ، ووصلوا إلى مكة نهاية شهر ذي القعدة فتحالف أميرا مكة مع أميرا المدينة لصد قوات ملك اليمن ، ودارت معركة كانت الغلبة فيها لجيش ملك اليمن ، وأصبح ابن برطاس نائبا لملك اليمن في مكة ، واندحرت قوات الحجاز .

لكن أمراء المدينة ومكة لم يرضوا بتولي ابن برطاس مكة خوفا من أطماعه لإخضاع باقي الحجاز ، فتربصوا له ، وحققوا نصرا عليه في سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) ،إذ باغتوه وتمكنوا من أسره بالمعركة لكنه فدى نفسه بخمسة الآف دينار وهرب إلى اليمن [٧].

ثم غيّر ملك اليمن تعامله مع أمراء مكة والمدينة منذ سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) ، عندما دخل مكة لأداء فريضة الحج ، إذ قام بأعمال جليلة من إعطاء الأموال و الهدايا و الهبات ، كما اعتنى بالحجاج ضيوف البيت الحرام ، وشمل ذلك حتى الحجاج المصريين ، وكسا الكعبة المشرفة فكان أول من قام بذلك من الملوك بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، لكن أميرا مكة هربا خوفا من بطشه بهما اثر أحداث سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) . [٨]

وقد أرسل إلى المدينة المنورة الصناع والبنائين إلى المسجد النبوي لغرض تجديد ما احترق منه في سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) ،[٩] كما أرسل إليه منبرا في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، خطب عليه حتى سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م) ،[١٠]كل تلك الأعمال كان لملك اليمن قدم السبق فيها ، كما دفع أعطيات وأموال سنوية لأمراء مكة والمدينة .

ويبدو أن ملك اليمن أراد أن يطيب خاطر أميري مكة وأن يستميلهما إليه فعمد إلى إرسال أموال سنوية لهما كما أرسل كسوة الكعبة سنة (٦٦١هـ/١٢٦٣م) ، وكذلك فعل سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م) ، وزاد فيها أموالا لتزيين باب الكعبة بصفائح من فضة مطلية بالذهب زنتها ستون رطلا . [١١]

كل تلك الأمور حملت أميرا الحجاز على موالاة ملك اليمن طمعا وخوفا منه ، وعندما تمكن السلطان الظاهر بيبرس من فرض سيطرته على الحجاز كان يخطب له ثم يذكر اسم ملك اليمن بعده وعند تعليق الكسوة السنوية كانت تعلق كسوة اليمن بعد رحيل الحجيج المصري مراعاة لسلطان مصر .[١٢]

أثارت تلك الأعمال حفيظة الظاهر بيبرس الذي تولى حماية الحجاز بتقليد من الخليفة العباسي ، إذ لقب بخادم الحرمين الشريفين ،[١٣]فاخذ يرسل الكسوة السنوية إلى الكعبة و الضريح النبوي الشريف منذ سنة (٦٦١هـ/١٢٦٣م) ،[١٤]وأرسل البنائين والصناع والعدد والأموال والميرة إلى المسجد النبوي مرارا منذ سنة (٦٥٩-٦٦٩هـ/١٢٦١-١٢٧٠م)،[١٥] وأرسل منبرا يخطب عليه في المسجد النبوي بدلا من منبر اليمن في سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)[١٦]، وعندما دخل المسجد النبوي في أثناء أدائه فريضة الحج رسم بعمل مقصورة حول الضريح الشريف وأنجز في سنة(٦٦٨هـ/١٢٦٩م)وبعثه إلى المدينة في تلك السنة[١٧] .

كل تلك الأعمال أسفرت عن ترجيح كفة السلطان الظاهر بيبرس على ملك اليمن وتأكد ذلك عند قيامه بأداء فريضة الحج سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) ، والتي كانت موجهه بالأساس للحد من تسلط ملك اليمن على الحجاز ، وفي مضمون رسالة وجهها إليه يذكره فيها بأنه قريب من الحجاز يستطيع دخولها بأي وقت ، وانه أولى بحماية الحرمين الشريفين .[١٨]

لكن واقع الحال على غير ما ذكره الظاهر بيبرس في إظهاره سرعة قدومه لا يعني سرعة جنده أيضا ، إذ يتعسر عليه القيام بحملة على الحجاز ومن ثم قمع ملك اليمن ، وهو في مواجهه شبه دائمة مع المغول و الصليبيين ، وذلك ما أدركه ملك اليمن وأمراء الحجاز، فعلى الرغم من علو همته العسكرية وتضييقه على ملك اليمن ، إلا أن ذلك لا يعني سيطرته على الحجاز أو مقدرته على ذلك بأي حال من الأحوال .[١٩]

سياسة السلطان الظاهر بيبرس تجاه أميرا مكة :-

أعلن أميرا مكة في سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م)ولاءهما والخطبة للخليفة الحفصي الذي تلقب بالمستنصر بالله ، فأرسلا له البيعة . كما مر بنا . خوفا من تسلط ملك اليمن عليهما وطموحات الملك الظاهر في ضم الحجاز لممتلكاته ، لكن سرعان ما دان أميرا مكة لملك اليمن الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول ، عندما دخلها حاجا في سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) ،[٢٠] يذكر أن أميري هربا إلى وادي مر خوفا منه لمدة عشرة أيام وهي فترة مكوثه فيها ، فأجزل العطاء لأهلها ، وغسل الكعبة وطيّبها ثم كساها من الداخل والخارج فخطب له فيها .[٢١]

لكن أميرا مكة خطبا للملك الظاهر في سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٤م) كما أن مفتاح الكعبة مع قفلها أرسله الملك الظاهر بيبرس إليها وعين نائبا له فيها ،[٢٢] وقد بيّن ذلك ابن عبد الظاهر بقوله " **وفي صفر من هذه السنة (٦٦٢هـ) وصل الحجاج مخبرين بأن خطب للسلطان بمكة وتسلم الصدر جمال الدين حسين بن الموصلي كاتب الإنشاء الشريف المتوجه إلى مكة نائبا بها مفتاح البيت الشريف وقفله بالقفل المسير صحبته ...**" [٢٣] ومنذ ذلك الحين خطب للملك

الظاهر ثم لملك اليمن ،[٢٤] ويبدو أن إحياء الخلافة العباسية في القاهرة كانت سببا في ذلك من خلال تقليد الخليفة العباسي لسلطان مصر أمور حماية الحرمين وخدمتهما.[٢٥]

حاول ملك اليمن عدم إثارة السلطان بيبرس فأقر إجراءاته في انه رفع منبر ملك اليمن من المسجد النبوي ، والخطبة لبيبرس في مكة والمدينة ، فأرسل الأخير إلى الحجاز (مكة والمدينة) من يقوم بجباية أموال الزكاة في سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٦م)،[٢٦]فدفع أهل الحجاز الزكاة لسلطان مصر مما يؤكد سطوة الملك الظاهر عليهم .

أتاح النزاع السياسي – العسكري بين أميري مكة ، أبي نمي ،[٢٧]مع عمه إدريس بن قتادة ،[٢٨] في سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، فرصة ثمينة في إحكام سيطرت الملك الظاهر بيبرس عليها ، على اثر الخطاب الذي أرسله أبو نمي لبيبرس الذي جاء في مضمونه " **انه لما شاهد من عمه الشريف بهاء الدين إدريس بن قتادة ميلا إلى صاحب اليمن وتحاملا على دولة السلطان أخرجه من مكة وانفرد بالإمرة وخطب للسلطان وسأله مرسوما إلى أميرا المدينة [المنورة] أن لا ينجدونه عليه** ".[٢٩]

ومن النص أعلاه تتجلى ثلاثة أمور رئيسة مهمة تتعلق بالعلاقات السياسية بين أطراف الصراع ؛

الأول : أوضح التنافس الكبير بين أمير المدينة وأمير مكة ، وبين سلطان مصر وملك اليمن .

أما الأمر الثاني : التماس أبي نمي من السلطان الظاهر بيبرس مرسوما سلطانيا (تقليد) لحكم مكة وهو إقرار واضح في أن مرجعية حكم مكة بيد السلطان الملك الظاهر . والثالث : هو طلب أمير مكة من الظاهر بيبرس منع أمراء المدينة من مساندة عمه ، وفيه توكيد لسطوة بيبرس على أمراء المدينة .

ونتيجة لذلك ينصاع إدريس بن قتادة عم أبي نمي لطاعة الملك الظاهر ويصطلح مع ابن أخيه ، فيفرض بيبرس عليهم شروطا لإبقائهم أمراء على مكة :

١. عدم اخذ الأموال (المكوس) من الحجاج .
٢. لا يمنع احد من دخول مكة في ليل أو نهار .
٣. أن لا يظلم احد من الحجاج و التجار وان لا يؤذوهم في داخل الحرم المكي .
٤. أن يخطب له وتضرب السكة باسمه . [٣٠]

وقد قبل أمير مكة ذلك لقاء مبلغ سنوي قدره عشرون ألف درهم ،[٣١]الواقع إن قبول أميري مكة بتلك الشروط إقرار منهم بقوة الملك الظاهر . وما إن حلت سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) عزم الملك الظاهر على أداء فريضة الحج ، لكي يرى بنفسه ما قام به الشريفان في مكة في تنفيذ الشروط التي اشترطها عليهم ، فضلا عن اطلاعه على الطريق البري الذي سوف يسلكه

إن اضطر للقيام بحملة عسكرية على الحجاز واليمن ، إذ وصل مكة يوم التروية وأدى مناسك الحج والتقى بأميريها وأكرمهما وأحسن إليهما ، وزاد في الأموال السنوية التي خصصها لهما [٣٢].

أكد الملك الظاهر سيطرته على مكة وبان ذلك من خلال إذعان أميريها تعيين نائب لبيبرس في مكة ، ومن مكة بعث إلى ملك اليمن رسالة ملؤها التهديد والوعيد ويبدو انه جاء رداً على انتقاص لمكانة بيبرس كونه مملوك منها ؛ " **فان كنت ملكا فاخرج والتق التتار** ".[٣٣]

وسرعان ما اخرج أميرا مكة نائب السلطان في سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) ،[٣٤]إذ لم يفيا بوعودهما للملك الظاهر ، كما نشب نزاع بين الأميرين سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م) أسفر عن مقتل إدريس بن قتادة على يد ابن أخيه أبي نمي ،إذ كانت الغلبة في البداية لإدريس الذي طرد ابن أخيه لأكثر من ستين يوما من مكة ، ثم جمع أبو نمي حوله العربان وقاتل معه أهل ينبع فتمكن من طعن إدريس وأسقطه على الأرض وحز رأسه ،[٣٥] وقد سكتت المصادر التاريخية عن ذكر أي رد فعل من قبل السلطان ، إذ لم يحرك ساكنا لفض ذلك النزاع سوى رسالة تهديد أرسلها لأبي نمي أوردها الفاسي في أحداث سنة (٦٧٥هـ/١٢٧٦م) ، ونصها :

" **من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبي نمي محمد بن أبي اسعد : ... أما بعد ؛ فان الحسنة في نفسها حسنة وهي في بيت النبوة أحسن و السيئة في نفسها سيئة وهي في بيت النبوة أوحش وقد بلغنا عنك أيها السيد انك آويت المجرم واستحللت دم المحرم ومن يهنه الله فما له من مكرم فان لم تقف عند حدك أغمدنا فيك سيف جدك و السلام** ".[٣٦]

ومن النص نجد أن بيبرس يكيل التهم لأمير مكة في استحلاله للدم في مكة ، ويبدو أن النص لا يتفق مع أحداث سنة (٦٧٥هـ) بل مع أحداث نزاع الأميرين أبي نمي وعمه سنة (٦٦٩هـ) ، ذلك أن أحداث سنة (٦٧٥هـ) شهدت نزاعاً بين أمير مكة وأمير المدينة جماز بن شيحة ،[٣٧] الذي كانت علاقته سيئة على الدوام مع الظاهر بيبرس ، فلا يعقل أن يهدد بيبرس أمير مكة من اجل نصرة أمير المدينة .

وقد شعر أبو نمي بحرج موقفه تجاه السلطان فاظهر الولاء له من خلال جوابه للمراسلة فأجاب :

" **من محمد بن أبي سعد إلى بيبرس سلطان مصر أما بعد :**
فان المملوك معترف بذنبه تائب إلى ربه فان تأخذ فيدك الأقوى وان تعفوا [الأصح تعف] فهو اقرب للتقوى و السلام ".[٣٨]

وفيه إقرار منه بتبعيته لسلطان مصر ، كما بيّن صحة ما نسبه بيبرس ضده ، وحقيقة الأمر أن انشغال بيبرس بحروبه ضد الصليبيين ، وتصديه لتحرشات المغول ، أدت إلى تخليه

عن توجيه حملة عسكرية كبيرة لإخضاع الحجاز واليمن اقتداءً بما كان في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي ،[٣٩] لكنه اكتفى برسائل التهديد والوعيد ضد أميري مكة .

سياسته تجاه أمراء المدينة :

لم تكن العلاقات السياسية بين أمراء المدينة والظاهر بيبرس بأحسن حال ، نسبة للعلاقة مع أميري مكة ، فعلى الرغم من الاهتمام البالغ الذي أبداه بيبرس بالحرم النبوي ، فانه لم يرض عن أمراء المدينة طوال فترة حكمه خاصة الأمير جماز بن شيحة الحسيني الذي كان على نزاع مع ابن أخيه مالك بن منيف بن شيحة ، فتارة يطرد ابن أخيه وتارة ابن أخيه يطرده ، وهكذا كان الحال لا يخلو من تدخل الأطراف الخارجية كملك اليمن وغيرهم .

كان أول اتصال مع أمير المدينة في سنة (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م) ، عندما استعرض الملك الظاهر بيبرس قواته أمام سفراء المغول ، وطلب فرسا ذكرت له في الحجاز ، وكانت من الخيول الأصيلة ، فجد أمير المدينة في جلبها له وأرسلها مع ابنه ، وقد أشار ابن عبد الظاهر إلى ذلك بقوله : " ولقد سير في طلب فرس من هذه الخيول من صاحب المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فحضر ولد صاحب المدينة وصحبته عدة خيول من جملتها هذا الفرس " ، وأوضح ابن عبد الظاهر المشقة التي لقيها أمير المدينة حتى حصل على الفرس إكراما للملك الظاهر .[٤٠]

أما عن التدخل سياسي فقد أرسل الملك الظاهر بيبرس في سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) إلى أمير المدينة لإرسال الزكاة إلى القاهرة كونها مقر الخلافة ، وأمير المدينة احد أتباعها ، لكن أمير المدينة امتنع عن إعطاء الزكاة لمبعوث الملك الظاهر ، فاستعان الأخير بعربان بني خالد لمحاربة أمير المدينة ، وعندها أذعن للدفع ، [٤١]وعندما استنجد الأمير مالك بن منيف وهو ابن أخ أمير المدينة بالسلطان بيبرس سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م) ،[٤٢] وطلب أن ينصفه من ظلم عمه أمير المدينة جماز وانه اغتصب حق مالك في الإمارة بعد أبيه وعندما تحقق بيبرس من الأمر أرسل إلى جماز يطلب منه إعادة حقوق مالك إليه، وان يقتسم معه الإمارة، فوافق جماز على ذلك ، لكن جماز لم يمتثل لأوامر الملك الظاهر بيبرس ،[٤٣] فعمد مالك بن منيف إلى جمع العربان وأتباعه مستعيناً بالأموال التي أعطاها له الظاهر بيبرس ، وقام بدهم المدينة وجماز خارجها ، واستولى على دار جماز وخربها ونهبها أتباعه من العربان ، وحاول جماز أن يستعين بأمير مكة كي يطرد مالك من المدينة لكن الأمر لم يتم له ، فانسحب من أطراف المدينة وهنا بدأت المفاوضات بين الطرفين ، فتنازل مالك عن إمارة المدينة لعمه جماز وأصبح جماز أميرا عليها حتى وفاته سنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م) .[٤٤]

ومن جراء ذلك بيبرس تسلم أموال الزكاة من قاضي المدينة ، الذي أتى بصحبة الأمير ناصر الدين بن محيي الدين الحاجب ، وقد استقلها وكانت ١٨٠ جملا وعشرة الآف درهم،[٤٥] كما أمر بحبسه مدة من الزمن ثم أطلقه ،[٤٦]لما له من العلم والصلاح ، إذ تمكن الأخير من إقناع بيبرس وكسب وده ، فأرسل معه احد خواصه جمال الدين محسن ألصالحي ومعه من الأموال والميرة والسكر والميرة ما قيمته ٢٠٠ ألف درهم ،[٤٧]وعند دخول الملك الظاهر المدينة في العشر الأخيرة من ذي القعدة سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) ، حاجا مكث ثلاثة أيام قبل ذهابه إلى مكة ، وتصدق على الناس في تلك الأيام ، وهرب جماز من لقائه فقال بيبرس في ذلك " **لو كان جماز يستحق القتل ما قتلته ، لأنه في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم** " ،[٤٨] وعند فراغه من أداء فريضة الحج دخل المدينة ومكث فيها وتصدق ، وزاد في الأموال والعطايا والهبات لأميري مكة وكل من قابله من الأمراء عدا الأمير جماز الذي لم يقابل الملك الظاهر [٤٩].

وأرسل الملك الظاهر درابزيناً ،[٥٠] للحجرة الشريفة سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) بعد أن اطلع عليه أثناء عودته من حجه فقدح في خلده أن يصنع درابزينا يحفها من الناس ، فأخذ قياس الدرابزين بيده ، وكان الدرابزين في غاية الأناقة والجمال والواقع عد ذلك في ميزان حسناته .[٥١]

على أية حال فقد كانت العلاقة مع أمراء المدينة أكثر ضعفا وتوترا مما هي عليه مع أميري مكة على الرغم من محاولات السلطان بيبرس بسط نفوذه عليها ولو اسميا وتوسل في سبيل تحقيق ذلك بكل الوسائل المتاحة له ، ويبدو أن لملك اليمن تأثيرا اكبر على أمير المدينة، فضلا عن اختلاف وتقطع المصلح الشخصية بين الظاهر بيبرس وجماز أمير المدينة .

الخلاصة :

مما تقدم يتضح لنا أن الحجاز (مكة –المدينة) قد تمتعت بشبه استقلال ذاتي منذ انتهاء حكم الأيوبيين على مصر وبلاد الشام حتى تولى الملك الظاهر بيبرس الحكم ، ونتيجة لانشغال الملك الظاهر عنها تمكن ملك اليمن من السيطرة عليها مدة من الزمن فكان ذلك سببا من أسباب الخلاف السياسي بين المماليك واليمن .

اعتمد بيبرس مع أميرا الحجاز بين اللين والمداراة حينا والضغط السياسي والتهديد بالعمل العسكري حينا آخر ، كما انصب اهتمامه بالكعبة الشريفة والمسجد النبوي الهدف من ذلك تحقيق ما يأتي :

أولا: أداء واجبه أمام الله سبحانه والرعية ، بموجب التقليد الخليفي له بالاعتناء بالعتبات المقدسة وخاصة منها الحرمين الشريفين ،

وثانيا : كان الاعتناء بتلك المدن مكسبا سياسيا اخذ كل سلاطين الإسلام التسابق للقيام به .ولا يخفى علينا إن ذلك كان يعطي دفعة معنوية كبيرة للجيوش المنضوية تحت راية بيبرس في جهاده ضد المغول والصليبيين ، كونه يهتم بمقدسات المسلمين ويذود عنها ويمنع أمراءها من التجاوز على المسلمين فيها .

الهوامش:

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني من ملوك الدولة الحفصية في تونس ولد (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) ، عرف بالشجاعة والإقدام وتعرضت تونس في عهده لحملة لويس التاسع، للمزيد ينظر عبد الحي بن احمد بن محمد المعروف بابن العماد الحنبلي ، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب،** تحقيق : عبد القادر الارناؤوط، (دمشق،دار ابن كثير ،١٤٠٦هـ) ،ج٥/٣٤٩.

(٢) احمد بن حسين بن قنفد ، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية** ، (تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨م)

ص١٣٨-١٤٠؛ ينظر أيضا محمد بن إبراهيم الزركشي ، **تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية** ، تحقيق : محمد ماضور ، (تونس ، المكتبة العتيقة ،١٩٦٦م) ، ص٣٧.

(٣) محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** (المنسوب له)، تحقيق : عبد العزيز الخويطر ، (الرياض ، مطابع القوات المسلحة ، ١٩٧٦م) ، ص٩٩-١٠١.

(٤) ريتشارد مورتيل ، **الأحوال السياسية و الاقتصادية بمكة في عصر المماليك** ، (الرياض ،جامعة الملك سعود ، ١٩٨٥م) ، ص٣٠-٥٢؛ احمد السباعي ، **تاريخ مكة** ، (مكة المكرمة ، دار مكة ، ١٩٧٩م)، ص١٦٥-١٧٤.

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، **تاريخ ابن خلدون** (العبر وديوان المبتدأ والخبر ...) ، (بيروت ، دار إحياء التراث ،د/ت) ج٦/٢٨٠.

(٦) احمد السباعي ، **المرجع السابق** ، ، ص١٦٥-١٧٤.

(٧) عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العاصمي ، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي** ، تحقيق: عادل احمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (بيروت ، دار الكتب العلمية ،١٩٩٨م)، ج٤/٢٣٧-٢٤٠.

(٨) علي بن الحسن الخزرجي ، **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية** ، تحقيق ك محمد بسيوني عسل (القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩١١م) ،ج١/١٣٤-١٣٥.

(٩) تقي الدين محمد بن احمد الفاسي ، **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** ، (القاهرة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٠٨) ج١/١٢٤.

(١٠) نور الدين علي بن احمد السمهودي ، **وفاء الوفا** ، (القاهرة ، مطبعة الآداب والموبد ،١٩٠٨م) ، ج١/٤٣٧-٤٣٨.

(١١) تقي الدين احمد بن علي المقريزي ، **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والسلاطين والملوك،** اعتناء : جمال الدين الشيال ، (القاهرة ،مطبعة لجنة التأليف و الترجمة ،١٩٥٥م)ص٨٤-٨٥.

(١٢) الفاسي ، **العقد الثمين في أخبار البلد الأمين** ، تحقيق : محمد الطيب ، (القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، د/ت) ج/٤٨٩.

(١٣) عبد الله بن ايبك الدواداري ، **كنز الدرر وجامع الغرر** ، تحقيق : اولخ هارمان (القاهرة ، مطبعة عيسى البابي ، ١٩٧١م)ج٨/١١٠؛ ينظر أيضا حسن الباشا ، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار** ، (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م)ص٢٦٨.

(١٤)المقريزي ، **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة (القاهرة ، ١٩٥٧م) ج١/ق٢/٤٤٠.

(١٥)بدر الدين محمود العيني ،**عقد الجمان في ذكر أهل هذا الزمان** ، حوادث سنة ٦٤٨-٦٦٤هـ ، تحقيق : محمد محمد أمين ، (القاهرة ، دار إحياء التراث ،١٩٨٧م)ص٣٦٥.

(١٦)السمهودي ، **المصدر السابق** ،ج١/٢٨٨-٢٨٩.

(١٧)قطب الدين موسى بن محمد اليونيني ، **ذيل مرآة الزمان** ،(حيدر آباد الدكن ، مطبعة مجلس المعارف العثمانية ،١٩٥٤م)م١/ج٢/٤٣٤.

(١٨)ابن عبد الظاهر ، **المصدر السابق** ،ص ٣٥٦.

(١٩) شافع بن علي ، **حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية** ، تحقيق : عبد العزيز الخويطر، (الرياض ، مطابع القوات المسلحة ، ١٩٧٦م)ص٨٦.

(٢٠) الخزرجي ، **المصدر السابق** ، ج١/١٣٤.

(٢١)المقريزي ، **الذهب المسبوك** ،ص٨٤-٨٥؛ مورتيل ،**المرجع السابق** ،ص٥٣.

(٢٢) شافع ، **المصدر السابق** ، ص٧٠؛ المقريزي ، **الذهب المسبوك** ، ص٨٤.

(٢٣) ابن عبد الظاهر ، **المصدر السابق** ، ١٨٣.

(٢٤)الفاسي ، **العقد** ،ج٧/٤٨٩؛ مورتيل ، **المرجع السابق** ،ص٥٤.

(٢٥)ابن آيبك ، **المصدر السابق** ، ج٨/١١٠.

(٢٦) ابن عبد الظاهر ، **المصدر السابق** ، ص٢٧٦.

(٢٧) هو محمد بن حسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني ولي أمرة مكة نحو خمسين سنة (٦٥٢-٧٠١هـ/١٢٥٤-١٣٠١م)، انفرد بإمرة مكة منذ سنة (٦٦٩-٧٠١هـ/١٢٧١-١٣٠١م) ، عن ترجمته ينظر شهاب الدين احمد بن حجر العسقلاني ، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة** (حيدر آباد الدكن ،مطبعة مؤسسة المعارف العثمانية ، ١٩٣٢م)،ج٣/٤٢٢-٤٢٣؛ الفاسي ، **العقد الثمين** ، ج١/٤٥٨-٤٧١.

(٢٨) هو إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني ، ولي إمرة مكة شريكا لأبي نمي سبعة عشر سنة (٦٥٢-٦٦٩هـ/ ١٢٥٤-١٢٧١م)، قتله أبو نمي سنة (٦٦٩هـ/١٢٧١م)، ينظر الفاسي ، **العقد الثمين** ، ج٣/٢٧١-٢٧٩؛ ابن تغري بري ، **المنهل الصافي و المستوفي بعد الوافي** ، تحقيق : محمد محمد أمين (القاهرة ،لجنة إحياء التراث ، ١٩٨٤م)ج٢/٢٨٥-٢٨٦.

(٢٩)ابن عبد الظاهر ، **المصدر السابق** ، ٣٥١-٣٥٣.

(٣٠)الفاسي ،**العقد الثمين** ، ج١/٤٥٩؛المقريزي ، **السلوك** ،ج١/ق٢/٥٧٩؛ السباعي ، **المرجع السابق** ، ١٧٤-١٧٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، **الظاهر بيبرس** (القاهرة ،المؤسسة المصرية العامة ،١٩٦٣م)ص١١٣

(٣١) ابن عبد الظاهر ، **المصدر السابق** ، ص٣٥١؛مورتيل ، **المرجع السابق** ،ص٥٦.

(٣٢) بيبرس المنصوري ، **مختار الأخبار** ، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان ، (القاهرة ،الدار المصرية اللبنانية ،١٩٩٣م) ، ص٤١؛ محمد جمال الدين سرور ، **الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره** ، (القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٣٨م) ، ص١٢٢-١٢٣.

(٣٣)المقريزي ، **الذهب المسبوك** ، ص٩٢.

(٣٤) الفاسي ، **العقد الثمين** ، ج٧/١٧٢.

(٣٥)اليونيني، **المصدر السابق** ، ج٢/٤٤٤؛ الكتبي ، **المصدر السابق** ، ج٢٠/٤٠٠.

(٣٦)**العقد الثمين** ،ج١/٤٦٥.

(٣٧) هو جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنى الحسيني ، عن ترجمته ينظر ؛ الفاسي ، **العقد الثمين** ، ج٣/٤٣٦-٤٣٧؛ ابن حجر العسقلاني ، **المصدر السابق** ، ج٢/٧٥.

(٣٨)الفاسي ، **العقد الثمين** ، ج١/٤٦٥.

(٣٩) مورتيل ، **المرجع السابق** ، ص٥٨.

(٤٠) ابن عبد الظاهر ، **المصدر السابق** ،٢١٢.

(٤١) المقريزي ، **السلوك** ، ج١/ق٢/ ٥٥٨.

(٤٢) اليونيني ، **المصدر السابق** ، ج٢/٣٨٦.

(٤٣) **المصدر نفسه** ، ج٢/٤٠٩.

(٤٤) ابن تغري بردي ، **المنهل الصافي** ، ج٣/ ٢٨٤-٢٨٥.

(٤٥) احمد بن عبد الوهاب النويري ، **نهاية الارب في فنون الادب** ، تحقيق : محمد عبد الهادي شعيرة ، (القاهرة ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٩٠م) ، ج٣٠/ ١٤٩.

(٤٦)ابن عبد الظاهر ، **المصدر السابق** ، ص٣٥٢.

(٤٧)المقريزي ، **الذهب المسبوك** ، ص٨٩.

(٤٨)اليونيني ، **المصدر السابق** ، ج٢/٤٠٩.

(٤٩)ابن عبد الظاهر ، **المصدر السابق** ، ص٣٥٦؛ المقريزي ، **الذهب** ، ص٩٠.

(٥٠) الدرابزين : هو قوائم منتظمة يعلوها متكأ وقد تكون من الجص أو من الخشب ، وقد تسمى دَرَبَزين و دربزين و درابزون ؛ للمزيد ينظر ، عبد الرحيم غالب ، **موسوعة العمارة الاسلامية** ، (بيروت ، المطبعة العربية ،١٩٨٨م) ص١٨٤.

(٥١) خليل بن آبيك الصفدي ، **الوافي بالوفيات** ، تحقيق : احمد الارناؤوط وتركي مصطفى ، (بيروت ، دار إحياء التراث ، ٢٠٠٠م) ج١٠/ ٢١٣.